اخلاقية نزار قباني

بقلم محمد الحناوي

ربما لم يتح لشاعر حديث مثل ما اتيح للشاعر نزار قباني من شهرة عريضة واقبال على انتاجه الذائع الصيت . وقد حظي الى ذلك باهتمام النقاد فدبجت مقالات ودراسات عن حياته ومدرسته الشعرية واطوار شعره وشعوره . لكن ذلك كله لم يمنع ان تبقى جوانب لم تدرس بعد في هذا الشاعر .. لعل اغربها واكثرها بعداً عن البال جانب الاخلاق . وهل لدى صاحب (طفولة نهد) اخلاق ؟؟

ان الشاعر يوحي بالجواب في قصيدة (اكتبي لي) (١) :

وما انا ممن يستغل صبية ليجعلها في الناس اقصوصة تروى
فما زال عندي رغم كثر سوابقي بقية اخلاق وشيء من التقوى

وهو نفسه يعرض على القراء تحليلا نفسيا لشخصيته التي هي ككل شخصية بشرية تنطوي على بذور الخير والشر ، فيقول في قصيدة (الى قديسة) (٢) :

رجل انا كالاخرين
فيه مزايا الانبياء
وفيه كفر الكافرين
ووداعة الاطفال فيه .. وقسوة المتوحشين

سنعجب اكثر العجب لو سمعنا الشاعر وهو ينتقد الشهرة السطحية والعادات الاجتماعية التي لا تهتم بالشعر ولا بشعور الشاعر بل بمغامراته الغرامية كشهرة نزار التي جعلت منه شاعر المرأة الجنس لا غير ، يقول :

ما اصعب الادب
فالشعر لا يقرأ في بلادنا لذاته
لجرسه
او عمقه
او محتوى لفظاته
فكل ما يهمنا من شعر هذا الشاعر ..
ما عدد النساء في حياته ؟
وهل له صديقة جديدة ؟
فالناس ...
يقرأون في بلادنا القصيدة ..
ويذبحون صاحب القصيدة (٣)

لسنا بصدد محاكمة ، ولكن ذلك لا يعفينا من قول الحق : ان الصورة المرتسمة لنزار في اذهان الناس ليست مفخمة عليه ، ولكنها شان كل امر شهير .. مبالغ فيها ، او هي تغطي على ابعاده الاخرى . فهي صورة مختزلة (كاريكاتورية) ليست بالصادقة ولا الكاذبة .

هناك عوامل عدة عملت على اشاعة الصورة غير الكاملة عن نزار : منها بروز الجانب الغزلي الحسي لديه ، واهتمامات الناس الخاصة بهذا اللون من الشعر ، ومنها اللوم الاخلاقي اللاذع الذي تناول الشاعر ، وكذلك نوعية الجمهور الذي ادمن مؤلفاته ، ثم ان حديث الشاعر عن الامور الجنسية بحد ذاته في مجتمعنا يلقي ظلا خاصا على صاحبه ، ظلا يكاد يجرده من ابسط الحوافز الخلقية .

اما الطريف حقا في اخلاقية نزار فهو وجود نمطين واضحين للنزوع الاخلاقي : الاول ينزع الى التعبير المباشر الصريح عن المشاعر والاراء الخلقية ، والثاني لا نكاد نحس باراء الشاعر او بمشاعره الاخلاقية ، بل نتحسس الصدى في وجداننا الخلقي .

فمن اشعاره ذات المواقف الخلقية المباشرة الصريحة .. قصائده الوطنية والاجتماعية . فقصيدتا (عندنا) (٤) و (بلادي) (٥) شريط لوحات يفوح منها عبير الجمال والجلال :

وعندنا الصخور تهوى ، والدوالي مدمنه
وان غضبنا .. نزرع الشمس سيوفا مؤمنه

على حين يعكس لنا الوجه الاخر في (خبز وحشيش وقمر) (٦):

يترك الناس الحوانيت ويمضون زمر
لملاقاة القمر
يحملون الخبز والحاكي .. الى رأس الجبال
ومعدات الخدر ...
ويبيعون ويشرون خيال
وصور
ويموتون اذا عاش القمر

مثل ذلك الصورة المعبرة (احزان في الاندلس) (٧) :

مضت قرون خمسة
مذ رحل (الخليفة الصغير)
عن اسبانية
ولم تزل احقادنا الصغيرة
كما هيه
ولم تزل عقلية العشيرة
في دمنا كما هيه
حوارنا اليومي بالخناجر
افكارنا اشبه بالاظافر ..

لكن هذا الوطن على ما فيه ومن فيه يفدي الشاعر كل شيء فيه .. تشهد على ذلك قصائد (راشيل شوارزنبرغ) (٨) و (جميلة بو حيرد) (٩) و (رسالة من جندي في جبهة السويس) (١٠) :

لم يبق فلاح على محراثه الا وجاء
لم يبق طفل يا ابي الا وجاء
لم تبق سكين .. ولا فاس
ولا حجر على كتف الطريق
الا وجاء
ليرد قطاع الطريق
ليخط حرفا واحدا ..

حرفا بمعركة البقاء

انها مواقف وطنية اخلاقية تشف عن حب عميق لهذا الوطن واشفاق عليه ودفاع مستميت عنه .

اما اخلاقيته الاجتماعية فاكثر تنوعا وصراحة ففي (مرثاة قطة) (١١) تكريم لطهارة المرأة ولبساطتها ، وفي (ساعة الصفر) (١٢) و (امرأة من زجاج) (١٣) و (يجوز ان تكوني) (١٤) اكبار للحب النظيف والعواطف السامية . على حين يسخر من الزواج التجاري في (خاتم الخطبة) (١٥) و (الى اجيرة) (١٦) ، كما ينتقد استعباد المرأة في (الحب والبترول) (١٧) و (صوت من الحريم) (١٨) ، ويهاجم العرف الاجتماعي الذي لا يرى في شعر الغزل الا التهم والظنون كما في (ثمن قصائدي) (٣) حتى لينال من طمع المرأة السخيف في قصيدة (تريدين) (١٩) .

يحسن ان نقف قليلا عند لون خاص من اخلاق الشاعر الاجتماعية ، ذلك اللون الذي يفضح زيف حب الشاعر وخداعه للمرأة بصراحة ، يقول في (قصائد لم تكتب لها) (٢٠) :

مزقيها
كتبي الفارغة الجوفاء أن تستلميها
والعنيني والعنيها
كاذبا كنت ، وحبي لك دعوى أدعيها
انني اكتب للهو .. فلا تعتقدي ما جاء فيها

في هذه التجربة قال احد النقاد : (ان قصيدة « رسائل لم تكتب لها » مجموعه اعترافات لم يسطر كاتب بالعربية سطوراً في مثل جراة الصدق الفني المتغلغل بين كلماتها (٢١) والاعتراف الصادق بالحقيقة المرة ، الاعتراف الذي يجرح المعترف بالذات .. خلق عال بلا ريب .

ثم في قصيدة (الى مراهقة) يتماسك الشاعر امام صبية غريرة تتحداه ، فيعطيها درسا اخلاقيا شجاعا :

لا تصبي الكحول
فوق جراحي
فالصراع الذي اعاني رهيب
لك عمر ابنتي
ولين صباها
وتقاطيعها .. فكيف الهروب ؟ (٢٢)

لقد انتقد الشاعر نفسه والمرأة والمجتمع على حد سواء بجراة وصراحة فريدتين .. سميا وراء حياة نظيفة سعيدة فاضلة .

ولنزار مواقف خلقية ايجابية اخرى فضلا عن مواقفه الوطنية والاجتماعية . ففي قصيدة (الدخول الى هيروشيما) (٢٣) اخلاق انسانية رفيعة . اما في قصيدتي (ابي) (٢٤) و (خمس رسائل الى امي) (٢٥) .. فحنان عاطفي سام :

عرفت حضارة التعب
وطفت الهند
طفت السند ،
طفت العالم الاصفر ..
ولم اعثر
على امراة ، تمشط شعري الاشقر
وتحمل في حقيبتها
الي عرائس السكر
وتكسوني اذا اعرى
وتنشلني اذا اعثر

***

هذه الاخلاقيات المباشرة الصريحة التي يعجب بعض الناس حين يرونها لدى نزار ، ولا نعجب حين نجدها لدى كل عربي او شرقي .. هذه الاخلاقيات ليست المقصودة اصلا في هذا المقال ، بل مواقفه الخلقية غير المباشرة التي يندر وجودها لدى كثير من الشعراء المحدثين . ولا بد لنا قبل عرضها ان نقف عند بعض الامور : فقد يعترض معترض ويقول ان هذه القصائد لا تمت الى الاخلاق بسبب ، وسر اعتراضه يرجع الى اسلوب القصائد ومنهجها غير المباشرين ،ثم النظرة العجة لتجنس في شرقنا البائس . كما يعترض آخر فيزعم ان لا فصل للشاعر في هذه القصائد ، لانه لم يقصد الى هدف اخلاقي و (انما الاعمال بالنيات) ، والجواب يقتضي الكشف عن جوهر الاخلاق لدى نزار ، الا وهو الصدق في التعبير والصراحة في التصوير ، وهي اخلاق افتقدناها منذ امد بعيد . وفي ظني ان اخطر اعتراض يوجه الى هذا اللون .. ضآلته بالنسبه الى الوانه الاخرى ، وتحت يدي الان ما لا يقل عن ست عشرة قصيدة من مجموعه ستة دواوين — ان عددنا رقصة (سامبا) ديوانا واحدا .

اذا كانت العبره بالكمية — لا بالريادة والابداع — فان ست عشرة قصيدة ليست بثروة تافهة لشاعر متهم في اخلاقه !

بوسعنا الان ان نطالع النمط الثاني الذي نحن بصدده مبتدئين باحد النماذج لتوضيح وجهه نظرنا حول النزوع الاخلاقي غير المباشر . من الامثله الناجحه قصائد (رسالة من سيدة حاقدة) (٢٦) و (حبلى) (٢٧) و (أوعيه الصديد) (٢٨) وهي بالاضافة الى (احبروني) (٢٩) و (الى سيمه) (٣٠) و (الى مينة) (٣١) تعكس لنا غدر الرجل النذل بامراه سادجه مخلصه بدلت الغالي والمستحيل ورجعت بالعار او الخيبة . لنقرا قصيدة (حبلى) :

« لا تسمع . هي كلمه عجلى . اني لاشعر انني حبلى . وصرخت كالمسوع بي . (كلا) . ستمزق الطفلا . واردت تطردني . واخذت تشتمني . لا شيء يدهشني . فلقد عرفتك دائما نذلا » .

نحن امام رجل خائن جبان ، يفسو على امراة وجنين بكل فظاظة، ثم لا يني يحيل السباب ويغتصم بالكذب وبالخادم لينبذ الضحية بعيدا :

صدر حديثا :

الاشتراكية العربية

بين النظرية والتطبيق

بقلم

عبد الهادي الفكيكي

دراسة جدية مدعومة بالوثائق والارقام عن منجزات الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والجمهورية الجزائرية

منشورات دار الاداب — الثمن ٣٠٠ ق. ل

« وبعثت بالخدام يدفعني . في وحشة الدرب . يا من . زرعت العار في صلبي . وكسرت لي قلبي . ويقول لي . (مولاي ليس هنا). مولاه الف هنا . لكنه جبنا . لما تاكد انني حبلى » .

انه يتخلى عن مسؤولية ما اقترفت يداه ممتهنا كرامة المرأة التي احبته ، فيحاول رشوتها بالمال . وآي مال ؟ خمسون ليرة سورية ثمن المحبة والوفاء ؟ يا للثمن :

« مـاذا اتبصقني ؟ . والقيء في حلقي .. يدمرني . واصـابع الشيطان تخنقني . ووريثك المشؤوم في بدني . والعار يسحقني . وحقيقة سوداء تملأني . هي انني . حبلى .

لمن النقود .. لمن . لتجهضني . لتخيط لي كفني . هـذا اذن ثمني ؟ . ثمن الوفا يا بؤرة العفن . انا لم اجئك لمالك النتن . شكرا . ساسقط ذلك الحملا . انا لا اريد له أبا نذلا .. »

اما العار الذي لحق بالفتاة .. اما الالام المبرحة التي تعاني منها .. امـا خيبة امالها ، فذلك ثمنه ما تبقى من الخمسين ليـرة . يا للثمـن !

هل من شك في الدلالة الاخلاقية لهذا النص الفاجع ، لهـذه المأساة الاجتماعية الرهيبة ؟ ان التربية الاخلاقية اليوم تعتمد الى حد بعيد على التوجيه غير المباشر للعواطف والميول في تنميـة الحاسة الخلقية . فالوعظ المباشر ليس الا مرحلة بدائية في التربية ، تجاوزتها الاجيال والاداب والفنون . لا يكفي ان تقول لي : هذا ضار وهـذا نافع ، بل الخير ان تشعرني او تقنعني او ان تضعني على الطريق الذي يجعلني اميز بنفسي الضار والنافع .

ونوع اخر على العكس يعرض لنا استهتار المرأة المبتذلة بكرامة الرجل (فمدنسة الحليب) (٣٢) تخون زوجها الآمن ، و (همجيـة الشفتين) (٣٣) او صاحبة (طوق الياسمين) (٣٤) او (مهرجة) (٣٥) تتاجر بجسدها ، و (طائشة الضفائر) (٣٦) لا تفهم من الحب الا الجنس . لنطالع (مهرجة) :

اتريدين اذ وجـدت العشيقا اتريدين ان اكـون الصديقـا
وتقولينها بكـل غبـاء .. بؤبؤا جـامدا .. ووجها صفيقا
موقفـي تعرفينـه فتـواري عن طريقي يا من اضعت الطريقا
مضحك ما اقترحت .. يا بهلوانا يستحـق الرثـاء لا التصفيقا

انها عابثة وهو جاد ، انها تاجرة وهو مخلص :

اصديق .. وبعـد خمس سنين كنت فيها الشذى وكنت الرحيقا
يـا لـه منطق النساء .. امثلي يقبل الان ان يكـون صديقـا
اسالي ناهديـك عـن بصماتـي كـل نهد اشعلت فيـه حريقا
هكذا بيـن ليلـة وضحاهـا نتلاقـى شقيقـة وشقيقـا
فكاني لـم املأ الصدر لوزا وعلى الثغر ما سكبت العقيقا

كان شيئا لم يكن وبراءة الشيطان في عينيها :

اطمئنـي فلـن ازور نفسـي قـدر النسر ان يظل طليقـا
ابدا لـن اكـون قطـا اليفا تستضيفينه ، وثـوبا عتيقـا
سيدا كنت فـي مقاصير حبي ومن الصعب ان اصير رقيقـا

مثلما دهشنا لموقف المرأة الذي تحول من حبيبة أليفة الى حاقدة ثائرة .. سندهش مرة اخرى اذ نرى موقف الرجل كذلك قد تبـدل . فهو لم يعد (قطا اليفا) بل (قدر النسر ان يظل طليقا) . انهـا مواقف جديدة على قراء نزار قباني .. جديدة كل الجدة .

الشاعر الاناني المدلل ، عمر بن ربيعة العصر .. يتغير ، يتطور ، بل يعترف باخطائه وقرصنته في (يوميات قرصان) (٣٧) :

أشعر في قراراتي
ان يدي في يدك الصغيرة ..
قرصنة حقيرة ..

فيحذر (مصلوبة النهدين) (٣٨) من خطره وشروره :

عودي لامك ..
ما أنا بحمامة
ففريزة الحيوان تحت قناعي

هذا موقفه الاخلاقي من الصغيرة الغريرة ، فما موقفه من المجوز الخبيـرة :

انا لا تحركني العجائز فارجعي لكِ اربعون ، واي ذكرى سيئة
والابط ايـة حفرة ملعونة .. الدود يملأ قطرها والاوبئة (٣٩)

انه شعور التقزز والتنفير ، لكنه ينطوي الى ذلك على اشفـاق في قصيدة (البغي) (٤٠) التي تروي مأساتها :

يا لصوص اللحم .. يا تجاره هكذا لحـم السبايا يـؤكل
منذ أن كـان علىَ الارض هوى انتم الذئب ونحـن الحمـل
نحـن آلات هـوى مجهـدة تفعـل الحـب ولا تنفعـل

مأساة امراة اصبحت آلة لتعيش ، كالكثيرات من بنات الهـوى اللواتي كتبت عليهن هذه الضربة القاسية :

من انا ؟ احدى خطاياكم انـا نعجـة فـي دمكـم تغتسـل
اشتهي الاسرة والطفـل وان يحتويني مثل غيري منزل ..

ما اصدق قولها (نعجة في دمكم تغتسل) ، ولكن من يصغي لها ، لقد مات العدل :

سأل الانثـى اذا تـزني وكـم مجرم دامـي الزنـا لا يسـأل
وسريـر واحـد ضمهمـا تسقط الانثـى ويحمى الرجل

بعد هذا التطواف مع النماذج الاجتماعية الجنسية يعرض علينا الشاعر طرفا اخر من اخلاقياته غير المباشرة ، لا تقل طرافة عن سائر ما مضى ، انها مثل عليا انسانية سامية ، ليس فيها صوت المـرأة ولا جسدها ، ولا غرور الرجل ولا آنانيته ، بل الثور ، نعم الثور في مصارعة الثيران باسبانيا :

برغم النزيف الذي يعتريه ..
برغم السهام الدفينة فيه ..
يظل القتيل على ما به ..
اجل .. واكبر .. من قاتليه .. (٤١).

ما ارفع هذه القيمة الانسانية وأسماها ، انها تختصر مآسـي البشرية وتضع لها الثمن المجيد بكلمات قليلة ومثل بسيط .. هـا هو ذا الثور مرة اخرى :

كوريدا ...
كوريدا ...
ويندفع الثور نحو الرداء
قويا .. عنيدا ..
ويسقط في ساحة الملعب
كاي شهيد ..
كاي نبي ..
ولا يتخلى عن الكبرياء (٤٢)

الموقف الاخلاقي هنا ليس رفقا بالحيوان وحسب ، بـل هو تعاطف مع هذا الحيوان ، وتمجيد لكبريائه التي هي رمز لكبريـاء الاقوياء البسطاء من أمثال العرب في هذا العصر .

تطلب ((الاداب)) وكتب ((دار الاداب))

فـي البحـرين

مـن

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

لعل القارىء يسأل : ما علاقة القضايا الوطنية والاجتماعية بالاخلاق ؟ أو متى بدأت مواقف الشاعر الاخلاقية بالظهور ؟ او ما سر التناقض بين أشعاره الشهوانية والاخلاقية ؟ أو ما هي منابع النزوع الخلقي لدى الشاعر ؟

اما السؤال الاول فيستلزم التنبيه الى مدلولين للاخلاق : أحدهما قريب محدود الافق ، يتضمن بعض انواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها كالاخلاص والصدق ، والعفة والشجاعة ، والعدل والوفاء وأمثالها . وثانيهما عام يشمل المبادىء الكلية والمعاني الجامعة التي تشتق منها تلك الواجبات الفرعية (٤٢) .

أما السؤال عن بدايات النزوع الاخلاقي في شعر نزار فأمر ذو بال . لان الانسان قد يلبس لبوس الواعظين بعد أن يكل نابه ويهترىء مخلبه أيام شيخوخته . لكنما نزار منذ ديوانه الاول (قالت لي السمراء) يطالعنا بقصائد (الى عجوز) و (مدنسة الحليب) و (البغي) سالفات الذكر .. ويستمر هذا النزوع لديه مطردا متعاظما حتى ديوانه الاخير (الرسم بالكلمات) ما عدا رقصة (سامبا) التي هي قصيدة مستقلة .

والملاحظ ان أخلاقياته الايجابية المباشرة تكثر في ديوانه الاخير حيث يقترب الانسان من الشيخوخة ، تلك السن التي تزخر بالحكمة والتجاريب الفلسفية .. على حين نلاحظ ان أخلاقياته غير المباشرة تقاسمت أكثرها دواوين اربعة هي (قالت لي السمراء) و (طفولة نهد) و (قصائد من نزار) و (الرسم بالكلمات) .

أما تعليل التنافر بين أشعار نزار الحسية الجنسية واشعاره الاخلاقية ، فيرجع الى طبيعة تكوين النفس الانسانية التي لا تخلو من النوازع المتباينة أشد التباين ، كما تشير الى ذلك الملاحظة العادية ، وكما دلت أبحاث فرويد في التحليل النفسي .

لكن من أين استقى الشاعر هذه النوازع والوجدانات ، او بالاحرى هل كان يصدر في أخلاقياته غير المباشرة عن قصد اخلاقي ، أو عن رد فعل ، أو عن تجربة خاصة ؟ أيا كان الجواب ، فنحن ندرس نصوصا ذات دلالات اخلاقية ، وهذا حسبنا .

واذا وفق الشاعر توفيقا بعيدا في اشعاره الجنسية ذات المدلولات الاخلاقية غير المباشرة ، لما له من خبرات خاصة بهذا اللون .. فان توفيقه في المضمونات الانسانية والمثل العليا ، لا يقل عن ذلك ، بل هي فتوحات جديدة تسجل للشاعر في مضمار الادب العالمي الخالد . وحبذا لو استأنف الشاعر ما شرع به من هذا اللون وقد أشرف على العمر الحافل بالخبرات الفنية والتجاريب الشعورية والتأملات الفكرية . وانه لاهل لكل جديد ونفيس .

محمد الحسناوي

ـ ١ ـ ١٥ ـ ٣٢ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ قالت لي السمراء .
ـ ٤ ـ ٥ ـ ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٣٨ ـ طفولة نهد .
ـ ٣٠ ـ انت لي .
ـ ٦ ـ ٧ ـ ١٦ ـ ٢٠ ـ ٢٤ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٣١ ـ ٣٤ ـ قصائد من نزار .
ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٢ ـ ٢٩ ـ حبيبتي .
ـ ٣ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٩ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٣٥ ـ ٣٧ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ الرسم بالكلمات .
ـ ٢١ ـ نزار قباني شاعراً وانساناً ـ محيي الدين صبحي ـ ص ١٠٣ .
ـ ٤٣ ـ كلمات في مبادىء علم الاخلاق ـ الدكتور محمد عبدالله دراز ـ ص ١٦ ـ ١٧ .

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول

الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها
في كل مكان

أولاد حارتنا

* أجرأ وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
* الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها أن تصدر في كتاب ...
* تنشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج أنيق وطباعة فاخرة

الثمن ٧٥٠ ف. ل.